وَصفَ اَلطَّبِيعَةَ اَلصَّامِتَةَ ((اَلطَّبِيعَةُ اَلْأَرْضِيَّةُ)) عِنْدَ شُعَرَاءِ اَلْمَدِينَةِ اَلْمُخَضْرَمِينَ

أ.د. عباس جخيور سدخان الباحثة. آلاء حسن عبد علي

جامعة ذي قار / كلية التربية للعلوم الإنسانية

Journalofstudies2019@gmail.com

الملخص :

تعد الطبيعة المعين الذي يستقي منه الشاعر صورهُ الشعرية ، والملهم الأول الذي يرافق الشعراء بمظاهرها المختلفة طوال حياتهم ، لذا أمعنوا في وصفها بمختلف الاوصاف والنعوت ، وصوروها تصويراً جزئياً مرتكزين على قوه الخيال ، ومقصديتهم من التحليق في العوالم الصامتة الاقتباس منها مدلولاتهم اللغوية التي تناسب تجربتهم الإبداعية وتؤدي الفكرة المقصودة بصورة قريبة إلى الذات المتلقية بغية ترسيخها في النفس الانسانية.

الكلمات المفتاحية: (الطبيعة الصامتة، الطبيعة الأرضية، شعراء المدينة المخضرمين).

The description of the silent nature ((the earthly nature)) when the poets of the seasoned city

Prof. Dr. Abbas Jakhour Sedkhan Alaa Hassan Abd Ali

Dhi Qar University / College of Education for Human Sciences

Abstracts:

It is the specific nature from which the poet draws his poetic images, and the first inspirer who accompanies poets with its various manifestations throughout their lives, so they described it with various descriptions and epithets, and partially portrayed it based on the power of imagination, and their intention of flying in rigid worlds to quote from it their linguistic meanings that fit their creative experience The intended idea leads closely to the recipient self in order to establish it in the human soul.

Keywords: (silent nature, earthly nature, seasoned city poets).

المقدمة

شكلت نواميس الطبيعة الصامتة / مظاهر الطبيعة الأرضية منظومة واسعة النطاق ومركزاً أساسياً في تجارب الشعراء ، وميداناً رحباً لإبداعهم ، وهذا أن دلّ على شيء ، فإنّما يدل على مدى تعلقهم ببيئتهم ، وأقرب دليل على ذلك حكاياتهم عن الصحراء وسرابها وجبالها ووديانها واشجارها، وعشقهم للسماء وما فيها من ظواهر(١) .

وقد حث القران على التأمل في خلق الله وقدرته الدالة على عناصر الطبيعة السماوية والأرضية ، وذلك في قولة تعالى :((إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)) (٢) ، فهنا تتمازج عناصر الطبيعة العلوي والسفلي لإظهار سلطان الذات الإلهية وعظمتها أمام الوجود الإنساني .

لذا جاءت صورهم تناسب تلك البيئة بما فيها من ظواهر أرضية وسماوية ، وسنحاول بيان هذه الظواهر في مجال تجربة الشعراء المخضرمين ، ومعرفة براعتهم الفنية ، وقدرتهم الإبداعية في ذلك التوظيف ، وليس من السهل أن نحيط بكل مكوناتها ، إلاّ إنّنا سنقف عند بعض المظاهر التي أخذت توظيفاً واسعاً في نتاجاتهم ، وهي لا تكون على وتيرة واحدة في الخيال الشاعري عند شعراء المدينة المخضرمين فـ ((تتسع الأرض وتضيق محاكية اتساع رؤية الشاعر وضيقها))(٣) ، ومنها :

أولاً: وصف الجبال والوديان والصحراء والسراب

* الجِبَالُ :

اتخذ الشعراء من مجموعة الصخور والاحجار الصلبة المكونة قمم جبلية كبيرة صوراً شعرية يعبرون فيها عن مشاعرهم ، سواء أكان وصفها لذاتها أم اتخذوها وسيلة للتعبير عن اغراضهم الشعرية ، فما تعطيه دلالة الجبال من علو ورفعة وعظمة وغيرها من الصفات ، التي وظفها شعراء هذه الدراسة لتكون رمزاً مقابلاً لمآربهم الشعرية ، كقولِ حسان بن ثابت(٤) :

همُ جبَلُ الإسلامِ والناسُ حوْلَهُ　　　رضَامٌ إلى طودٍ يرُوقُ وَيَقْهَرُ

حيث يصف الشاعر شهداء مؤته بالجبال الشامخة عن طريق توظيفه (للطود والجبل) ، فهما يدلان على العظمة والرفعة والعلو المتصف بها أصحابها ، وقرب تلك الصورة الى المتلقي عندما جعلهم مركز العناية والاهتمام والتفات الناس حولهم بتصويرهم بالحجارة العظمية ـ رضام ـ التي ترصف بعضها الى بعض لتكون ذلك الطود الذي لا يقهر، واتخاذهم مثالاً يحتذون على منواله .

وإنَّ عظمة الجبال وشموخها كانت ملهماً ثقافياً للشاعر في إظهار عظمة مرثيه ، كما في قوله(٥):

شُمُّ الأنوفِ لهم مجدٌ وَمَكْرُمَةٌ　　　كانتْ لهمْ كجِبَالِ الطَّودِ أركانُ

يمنح الشاعر مرثيه تجلياً رمزياً ، وذلك عندما حاول إيجاد انعكاس واضح الأثر وتشبيه به مرثية ، فلم يجد عظمة واضحة كتلك الجبال التي وظفها ، وهنا خلقت معالم الطبيعة الصامتة للذات المتلقية تواصلاً جمالياً متمثلاً ببيان مكانة المرثي في قومه .

في حين يوظف كعب بن مالك مقارنة بين الأماكن الدينية المقدسة ، ويتخذ من موضع الجبال أساساً في رسم صورته المدحية التي يقول فيها(٦) :

فإنْ يكُ مُوسى كَلَّم اللهُ جَهْرَةً　　　على جبــلِ الطورِ المُنـيفِ المُعظَّمِ

فقد كـــــلَّم اللهُ النبي محمداً　　　على الموضعِ الأعلى الرَّفيعِ المسوَّمِ

إذ يكتسب المكان قدسيته من ارتباطه بالواقعة أو الحدث الذي ينسب اليه ، ويعد جبل طور (جبل سيناء) أحد الأمكنة التي تتسم بعبقها الروحي لارتباطها بتكليم الله لنبيه كليم الله موسى (عليه السلام) ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل جاء بموضع آخر اكثر تعظيما وهو (الموضع الأعلى) الذي كلم الله نبيه الكريم (ص واله) ، ويتراءى لنا أن غايته من توظيف معالم الطبيعة المرتبطة بالذات الإلهية وما أرسله من رسالات ، هو الكشف عن أيديولوجيته ، وإظهار تلك الثقافة الدينية في تجربته الشعرية .

أما الشاعر أبو قيس بن الأسلت فقد وصف تلك الجبال قائلاً[٧]:

وله الطيرُ تستريدُ وتأوي في وُكورٍ من آمنات الجبال

فصورة الجبال تحمل دلالة رمزية مقدسة إلى جانب العظمة والرفعة التي تنماز بها فهي عنصراً طبيعياً يكتسح بمنح الحياة واتخاذها الطيور مأوى لها ومأمن من تقلبات الظروف الجوية.

وصفوة القول مثل الجبل عند الشعراء المخضرمين بما فيه من قمم وسفوح وارتفاع شاهداً على مكانة الأشخاص الذين احتلوا مكانه عظمية ومنزلة رفيعة في نفسية الشاعر، وهناك من اتخذها مأوى لموجودات الطبيعة الحية .

* وصف الوديان

ذكر الشعراء الوديان تحت مسميات مختلفة لارتباطها بالبيئة التي يعشون فيها ، وقد اقترن ذكرها عند الشعراء المخضرمين بذكر الأحبة والاشتياق لهم ، وأشار الدكتور نوري حمودي القيسي إلى ما كان متوافراً في تلك البيئة بقوله: ((ومن أودية المدينة العقيق ، وفيه عيون ونخل))[٨] ؛ لما تتمتع به من أهمية كبيرة ، ومنها قيام الوديان المتشعبة بين جبال الجزيرة بمهمة ((أرسال المياه عند نزول الامطار من منحدرات الجبال إلى البحر والفيافي ، وكونها تؤلف معظم الأراضي الخصبة التي

نزلت حولها القبائل واقامت عندها بيوتها وخيامها ومرابعها... وقد أثارت الوديان في نفوس العرب الهواجس والتصورات لتفردهم في السير فيها))[٩] ، وهذا الأثر انطبع في نفوس الشعراء مما دفعهم إلى اتخاذه مظهراً اشعارهم ، ويظهر هذا المظهر في قول حسان بن ثابت[١٠]:

وإذ هيَ حوراءُ المدامعِ ترْتعي بمُنْدفَـع الـوادي أراكـاً منظّـمـا
أقامتْ بهِ بالصيفِ ، حتى بدا لها نشاصٌ إذا هبـتْ له الرّيحُ أرْزَما
قـدْ أل من أعضادِهِ ، ودنا لهُ مـن الأرضِ دانٍ جوزهُ فتحمحمـا
تـحنُّ مطافِيـلُ الرّباعِ خلالـهُ إذا استن في حافاته البرقُ أثجمـا
وكـادَ بأكنـافِ العقيـق وتـيدهُ يحُـطُّ من الجَمّاءِ رُكنـاً مُلمْلَمـا

فقد وظف الشاعر في هذه القصيدة جملة من المستويات الجمالية التي تجعل المتلقي يشارك المبدع في توصيف المشهد الطبيعي الوديان بوصفها تشكل مركزاً مهما في المدينة ، يلجا اليها الشعراء لذكر احبتهم ، وهي المكان الخالي المؤنس لهم ، وقد وصف المبدع حبيبته التي اتخذت من الوادي مرتعاً لها يؤنسها حتى اقامت به صيفا ، وهنا يظهر التعالق بين وجود الحبيبة وبين الماء الذي هو عنصر الحياة والخلق ، فوجوده يعني منح السعادة للذات الشاعرة في تلك الاماكن التي سببها جريان المياه في الوديان والذي يحمل غصون الآراك ، ويصف الشاعر وادي ـ العقيق ـ الذي يعد أهم أودية المدينة ؛ لما ينماز به من نخل وماء شديد الصوت ، ففي تسلط الأنظار الشاعرية على الفاظ الطبيعة ووصف الاودية دلالة على انها موطن للجمال الروحي والتنفيس عن إحساساته الشعورية إزاء تجربة الحب وذكرياته مع المحبوبة .

ومن ذلك قوله في رثاء حمزه بن عبد المطلب[١١] :

أتعرفُ الدّارُ عَفـا رسْمُها بعدَك ، صَوْبَ المُسبل الهاطلِ
بينَ السَراديح ، فأُدمانـةٍ، فمدفع الروحـاءِ في حـائلِ

فبعد أن وصف الشاعر تلك الديار التي أدرست معالمها حدد مكانها بقوله: (السراديح) ، وهي الوديان التي كانت بين مكة والمدينة ، فأصبحت تلك الوديان صورة من صور الألم والحزن لفقدانها تلك الشخصية العظيمة ، وهنا تظهر العلاقة الشعورية متجذرة في المكان .

وكذلك في قوله في مدح الرسول الأعظم (عليه الصلاة والسلام)[١٢] :

وأنَّ التي بالجزع مِنْ بطْن نخلةٍ ومَنْ دانَها فِلَّ من الخير معزلُ

فقد قصد الشاعر في نصه الشعري بـ (الجزع) الشعب أو الوادي الذي يحيط بالحجاز، وهو بهذا عمد إلى التحديد المكاني الذي كان رسول الله (ص واله) يحل بها ، لذلك أكتسب هذا الموضع مكانته التقديسية وشرفه المبارك لوجود تلك الشخصية العظمية ، وبهذا لم يكن المكان في التوظيف النصي عنصراً منفصلاً عن واقعيته ودليل ذلك أن الوديان أصبحت لها خصوصية إبداعية لمشاركتها فراق الأحبة وإظهار ذلك الحزن في محمولها الدلالي .

كذلك في قوله[١٣]:

ألم تسالِ الرَّبعَ الجديدَ التكلُّما بمدفعِ أشداحٍ ، فبرقةِ أظْلما

فبدا وادي " أشداخ " في المدينة مكاناً معادياً بفعل قهر الموت الجبري الذي فرضه سلطته على تلك الديار لتكون صورة من صور الحزن المطبق على وادي أشداخ في برقة بعد فراق أحبته ، ليصبح الظلام مخيماً عليها ، فالشاعر هنا يوجه لها سؤال لتكلم معه وتشاطره الحديث والألم ، فضلا عن ذلك تمثل ميداناً لاستذكار الاحبة والذكريات والشوق إلى أحبتهم الذين هجروها ؛ محققا حضورها توافر الهدوء والجمالية وصفاء الذهن ، ويضفى عليها تجسيدا جماليا يجعل الديار تتكلم مع من يحادثها ويقف على ربوعها ، لتكون بينهما صلات تقارب نفسي وعاطفي ، فاستطاع الشاعر بقدرته

الإبداعية توظيف الفاظ الطبيعة ، لتكون معادلاً موضوعياً للذوات التي يتمنى دوام وجودها في تلك البقاع ، وهذا ما أضفى على النص إحساساً ودلالة تعبيرية .

من ذلك قول قيس بن الحطيم[١٤]:

وكأنّهُم في الحَرب إذ تعلوهُمُ ... غَنَمٌ تُعبِّطُـها غُـواةُ شُرُوبِ

إنَّ الفضاءَ لنا فلا تمشوا بــهِ ... أبــداً بعــاليةٍ ولا بــذنُــوبِ

وتفقّدوا تسعِينَ من سرواتِكم ... اشباهَ نخلٍ صُرّعَتْ لجِنُوبِ

فالشاعر يقصد بالفضاء الذي هو موضع بالمدينة ـ أعلى الوادي واسفله ـ فهو يحذر الماشين فيها لخطورتها ، وقرن تلك الصعوبة بالسمة التي تتصف بها الوديان الشديدة الانحدار من الاقتراب من قومه في الحرب ، ثم يصف ضعف الطرف المعادي تجاه قومه فهو يصور هروبهم وقتلاهم كتقطيع النخيل التي تلقى صرعى على الأرض ، وكأن نقطة التجلي الحضوري لهؤلاء القوم في تلك الاماكن شكلت لهم لحظة نهائية لوجودهم .

وعلى هذا النحو مضى الشعراء في تصوير الوديان ، ووقفوا عند وديان المدينة يصورون الديار التي طمست معالمها ، فهي المؤنس يستذكرون فيها الخلان ؛ لما تنماز به من هدوء وجمالية لصفاء الذهن ، وقد ارتبط ذكر الأدوية بمعالم الأطلال ، فكانت معلما ثقافيا يلجأ اليها الاحبة .

*** وصف الصحراء والسراب**:

*** الصحراء** :

أخذت الصحراء مكانة كبيرة في العقلية الجاهلية ، بوصفها المحيط الطبيعي الذي لا يخرج عنه طالباً رزقه ، ومقيداً للأوابد ، وبين مطارد للحيوانات ، ولا يجهل أحد صعوبة اجتيازها في مفازاتها الموحشة المخيفة حتى غدا ارتيادها وجهاً من وجوه البطولة والفروسية[١٥] ، واصفين ما يمرون به من مشقة الصحراء في أشعارهم ، فقد

((وهب الشعراء حساً دقيقاً بوحدات الصحراء المسموعة وأصوات الفلوات واصوات اصدائها التي تتجاوب فيها اذا جن الليل ، وذهبوا مع الأوهام في تصور مصادرها فاعتقدوا انها من الجن تارة وانها من غير الجن تارة أخرى))[١٦] ، فهي لا تكاد تخلو من احتفاء معلن لأحد رموز الصحراء فصور الجاهلي حياة البادية في لوحتين الأولى تلامس النفس الإنسانية وتجعلها صعيداً محرقاً بجميع معاني الإحباط والياس والضيق ، والثانية سيولاً طاغية تحرق كل من يلامسها ، وفي ضوء ذلك تتحول صورة الصحراء في الفكر الجاهلي إلى صورة مخيفة[١٧] .

لذا وقف الشعراء المخضرمون عند هذا المظهر في أثناء حديثهم عن الناقه وقطهم تلك المفاوز، من ذلك قول كعب بن مالك[١٨] :

ألا هَلْ أتى غسّانَ عنّا ودونَهُمْ مِنَ الأرض خَرْقٌ سيرُهُ متنعنعُ

صَحَارٍ وأعـــلامٌ كـأنَّ قتَامَـهَا مِنَ البُـعدِ نقــعٌ هَامِـدٌ مُتـقـطّعُ

حيث يقدم لنا الشاعر في هذا النص صورة عن وصف السير في تلك الصحراء ، والتي دل على ذلك ـ الخرق ـ التي تضطرب فيها الرياح ، ثم يصف لون تلك الصحراء والجبال بالغبار الأسود الكثيف عند قطع تلك المفاوز والفلوات البعيدة .

يصف الشاعر ابن الأسلت سرعة ناقته في الهاجرة يقول [١٩] :

أقطعُ الخرْقَ يُخَافُ الرَّدى فيــه على أدماءَ هِلْواعِ

ذات أهـــــاسيجَ جمـاليّة حُشت بجـاريً وأقطـاع

يظهر في النص أن الشاعر يفتخر بمقدرته على اجتياز الفلوات الموحشة المخيفة مع ناقته، فقد أسهب الشاعر في وصف سرعتها ب " هلواع " ، فهي تتصف بحركتها المرنة في السير ، وقدرتها الطوعية على تحمل مشقة السفر ، ثم بعد أن يصف الشاعر جماليتها وتحملها في قطع البحار والاقطاع ، يذكر العلاقة المتبادلة بينهما ، فهي المؤنسة له في طول الطريق وبعده .

*** السراب** :

عُدَّ من الظواهر الطبيعة البارزة في الصحراء ، يرتبط منظره بالفلاة الواسعة ، وبمنظر الحر الشديد ، وملازمته لهما ، نظر اليه الشعراء فوجدوا فيه حقيقة ظاهرة وأنْ اقتربوا منه زال وتلاشي ، وظهر كذبه ، فكان الشعراء كلما تطرقوا إلى الصحراء تحدثوا عنه فقد عد معادلا موضوعياً لها فهو لا يفارقها ؛ لذا لاحظ الشعراء هذه الظاهرة وجعلوا منها صورا وألونا وظفوها في أشعارهم [٢٠] .

وقد وقف الشعراء المخضرمون عند هذه الظاهرة التي عدت جزءاً لا يتجزأ من صور الصحراء ، وقد ارتبطت بالمخيلة الإنسانية بوجود الماء ، أي النظر إلى الصحراء ورؤيتهم له وتخيل وجوده ماء ، ليكون ارواءً روحياً لعطشهم .

من ذلك قول حسان بن ثابت[٢١] :

وكالسّرابِ شبيهاً بالغدير، وإنْ تبغ السرابَ، فلا عينٌ وَلا أثرُ

إذ كرّر الشاعر مظهر من مظاهر الطبيعة الصامتة في نصة الشعري وهو(السراب) ، ليدل ذلك التكرار على افتتانه بالطبيعة وإحساسه بما تعطيه من معانٍ قد تكون حكماً ومواعظاً ، وما يلوح لنا من محمول دلالي كان الشاعر يبتغيه ، هو اتباع الشي الواقعي والابتعاد عن الأشياء الخيالية والصعبة المنال ، وهو بهذا يوازي الدلالة الرمزية لما عرّف عن هذه الظاهرة الكونية

ثانياً :- **وصف البحار والآبار**

يمثل الماء الأساس في تكوين الحياة وفي وجود البشرية ؛ لذا لا يمكن الاستغناء عنه ، من ذلك قوله جلّ ثناؤه ((وَجَعَلْنَا مِنَ المَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ))[٢٢] ،

فكل شيء مرتبط بوجوده وهو ما جعل العرب يوجهون إبداعهم إليه ليعبروا عنه بصور مختلفة تنبع من حاجتهم الماسة له .

ويعد من أكثر العناصر حراكاً في الفكر الميثولوجي والديني ، بوصفه قوة خلاقة وإرادة إلهية لإنتاج حياة جديدة ، تدفع الخيال إلى تأصيل محمولاته وتعميقها [٢٣] ، للكشف عن ماهيته القولية عبر تعالق نصي بينه وبين الدلالات المتوخاة ، فقد اقترن ((بالخصب الذي كانت العرب تعده موسماً للفرح والرزق ، وربما كان إفراطهم في حب الماء وذكره في أشعارهم يمثل نوعاً من التعويض ؛ نظراً لندرته في شبه الجزيرة العربية بحيث يبدو الماء مزيجاً من القدسية والاسرار ؛ لان الحصول عليه في بيئة صحراوية بدائية جافة أمر في غاية التعقيد ، بل أن الحركة والانسيابية التي تتمع بها الماء تجعله يسلك طرقاً تزيد في صعوبة الوصول إلى مصادرة ، فهو ذكي في حركته ويكاد يفوق الذكاء الإنساني ، لانه يبدأ بالمنخفضات محيطاً بالمرتفعات ... أو يغور إلى باطن الأرض فلا يستطيع الانسان له طلباً))[٢٤] .

*** البحار** :

فلا نظفر بصورٍ كثيرة عن وصف البحار في أشعار الشعراء المخضرمين ، فما وجدناه من صور تختص بهذا المظهر يقترن بتشبيه المحبوبة في روعتها بالدرة النفسية ، أو وصف لأمواج البحر العالية ومياهه وسير السفن[٢٥] ، وقد علل الجاحظ عدم اعتماده على الشواهد التي تخص البحر بقوله((ولم نجعل لما يسكن الملح والعذوبة والانهار والاودية ، والمنافع والمياه الجارية ، من السمك ومما يخالف السمك ، ومما يعيش مع السمك ـ بابا مجردا ؛ لأني لم اجد في اكثره شعرا يجمع الشاهد))[٢٦] ، بمعنى أنه ابتعد عن تخصيص باباً لما يتعلق بما هو موجود في البحر ، وسبب ذلك لان الشعراء سلطوا أنظارهم الشعرية على الدلالة العامة للبحر .

ويظهر هذا المظهر في قول الشاعر حسان [٢٧] :

ما البحر حينَ تهبُّ الريحُ شاميةً فيــغطئلُّ ويــرمي العبــرَ بالزَّبــدِ
يــــوماً بـأغلب منـي تبـــصرُني أفري من الغيظ فري العارضِ البردِ

يبدو أن الشاعر بدأ متأثراً بالطبيعة الصامتة (البحر) ، لذا وصف حالة البحر حين تهب عليه الريح الشمالية من جهة الشام وتغير فيه حالته ثم وصف شجاعته في المعركة وشدة سيفه في مواجهه الأعداء ؛ كالرياح التي تغير حالة البحر عند هبوبها ، ففي قوله (يرمي العبر بالزبد) استعان بأسلوب التناص من قولة تعالى : (فأمَّا الزبدُ فيذهبُ جُفَاءً)[٢٨] ، فكانت مقصدتيه هو الغلبة على هؤلاء القوم فهم كالزبد الذي يصبح هباء منثورا ولا يبقى منه شيء .

من ذلك قوله[٢٩] :

مِنْ دُرةٍ أغلى المُلُوكِ بهَا، مِمّا تربتَ حائرُ البحر

حيت رسم الشاعر صورة شعرية طبيعة مرتكزها البحر موظفاً فيها أدواته التشبيهية بوصف محبوبته عن طريق تشبيهها بالدرة النفسية التي تستخرج من عمق البحر، ويضف لها جمالية أكثر حين يقر أن جمالها أجمل من درة الملوك ، فالنص يفيض عاطفة تجاه محبوبته استمدها الشاعر من انعكاسات الطبيعة الصامتة .

وكذلك في قول الشاعر[٣٠] :

كأنّها دُرَّةٌ أحاط بها الـ غواصُ يجلو عن وجهها الصَّدفُ

فقد أقام الشاعر صلات تقارب دلالي بين جمال محبوبته وتشبيهها بجمال الدرة التي يستخرجها الغواص من اعماق البحر فأضفى عليها صفة جمالية جعلت النص اكثر عاطفة واحساساً .

*** الآبار** :

للآبار مكانة كبيرة في معجم اللغة العربية من ناحية مصطلحاتها وأسمائها وأدوات استخراج الماء منها ، وتخصص بعضهم في معرفة المواضع المحتمل لوجود المياه العذبة [٣١] ، وقد اظهر هذا المظهر في نتاج الشعراء بصور كثيرة ، فمنهم من أفتخر ببئره أوشبه ماءه بالدروع الرقيقة أو يمدح ماء البئر ويذم الآخر، وكانوا ينظمون الأراجيز عند حفر تلك الابار، فكانت العرب تنظر إلى الماء نظرة تقديس لأنها مورد الخصب والنماء وواهبة الخير والبركة[٣٢] .

وقد أشار القران الكريم إلى الينابيع في قوله جلّ ثناؤه :((ألم تَرَ انَّ اللهَ أنزَلَ مِنَ السماءِ ماءً فسلكهُ ينابيعَ في الأرض ثُمَّ يهيجُ فتراهُ مصفرًّا ثُمَّ يجعلهُ حُطامًا إن في ذلك لذكرى لأُولى الألبابِ))[٣٣] ، وللأهمية العظمية التي تجلت بها فقد ذكرها الله سبحانه وتعالى كونها مصدر خير وعدت من النعم التي أنزلها الله على عبادة لتكون لهم وسيلة للإرتواء .

من ذلك قول حسان يذكر رسول الله (ص واله) وأصحابه يوم بدر[٣٤] :

وقد زعمتمْ بأن تحموا ذِمارَكُمُ، وَمَاءُ بدرٍ زعمتُمْ غيرُ موْرُودِ

وقدْ وَرَدْنـــَا ولم نَسْمَعْ لقولـكُمُ حتى شربنَا رواءَ ،غير تصريدِ

إذ يظهر في النص وصف الشاعر لحال المعركة ، وكيف منعَ المشركون المسلمين أن يوردوا ماء بدر بوصفهم أول من يصل اليهم ، لكن الأمور تجري بخلاف ما يريدون ، فيتحقق لهم فعل السيطرة الطوعية بمشيئة السلطة الجبارة لنيل مطالبهم ، وهنا نرى من المقابلة الصورية خسران السلطة الزاعمة وانتصار السلطة المقابلة .

وكذلك في قوله[٣٥] :

بيَثْربَ قد شيدُوا في النخيلِ حُصُوناً ، وَدُجّنَ فيها النْعَمْ

نَـواضحَ قدْ علمتْـها اليـَهُو د عُلَّ إليـك ، وقـــولاً هَلُمْ

يفصح النص الشعري عن التحول الذي طرأ على المكان (يثرب) ، وانَّها أصبحت مدينة اقتصادية ودينية آمنة ومستقرة ، لعنايتهم بتامين حياتهم المعيشية عن طريق زراعة النخيل ، وتشيد الحصون ، ومعرفة الطرق الخاصة باستخراج الماء من الآبار (النواضخ) ، مما شكلت مصادر طبيعية عذائية وإرواءيه لسكانها .

من ذلك قول كعب يرثي حمزة بن عبد المطلب واصحابه (رض)[٣٦] :

وببئر بدرٍ إذ يرُدُّ وجوههمْ   جبريلُ تحتَ لوائِنا وَمُحَمَّدُ

فالشاعر يصف عظمة المرثي وشجاعة أصحابه عند ورودهم بئر بدر، فكانوا مؤيدين بالوحي وبعظمة الرسالة المحمدية ، فكان الرسول تحت لوائهم مشاركاً لهم ، ومدافعاً عن الإسلام .

من ذلك قول الشاعر أبو قيس بن الأسلت [٣٧] :

أعددتُ للأعداءِ موضونةً   فضفاضةً كالنهي بالقاع

أحفزها عنيّ بذي رونقٍ   مُـهَنَّـدٍ كالمـــلح قطـاع

فالشاعر يصف درعه المنسوجة الواسعة التي أعدها للأعداء ، ويشبه صفاء تلك الدرع بصفاء ذلك الغدير الواسع المنبسط من الارض ، أي أن لون الدرع كلون الماء الذي يتخلف بالقاع بعد المطر، ثم ينتقل الشاعر لرسم صورة لسيفه والذي شبهه بالرونق الذي يلمع في وجه الأعداء ، فهنا اتسقت الطبيعة لتكون صورة واصفة لعدة القتال (الدرع والسيف) قاصداً منها النورانية والضوء المنبعث مشابه للمعان قطرات الماء .

ثالثاً :- الأشجار والنباتات

حظيت الأشجار بمكانة عظمية في اشعار الجاهلية وصدر والإسلام ، واخذت نصيبا وافراً من اشعارهم وانمازت بكثرة تواردها مقارنة مع النباتات والازهار ، أما النباتات الصحراوية نجد ندرتها لندرة الماء فيها .

فقد عدت المناطق الخضراء من مكملات الطبيعة الصامتة ؛ لأنّها تضفي انطباعاً وتأثيراً في النفس الإنسانية ، ويرى عبد القاهر الجرجاني أن اخراج النفس الإنسانية من المبهمات العقلية إلى الاحاسيس ، ومن المعقد إلى المبسط عن طريق الحواس البصرية بمشاهدة المناظر الإنسانية تعطي للذات الإنسانية سرورها وبهجتها [٣٨] ، مما يدل على تأكيد النقاد على الانطباع التي تتركه الطبيعة بجمالها على الذات الإنسانية وتكوين الملكة الفنية لديه.

وقد بين القرآن مظاهر النعمة في الشجر من خلال جانبين : الأول مادي، والآخر معنوي ، فالجانب المادي يتجلى في كونه طعاما للإنسان ، لما هو في حوزة الانسان من الحيوان يقتات به ، وجانبا اخر معنويا ونفسيا يتجلى في انه زينة للإنسان يرتاح له وينبسط من منظره الجميل[٣٩] ، وقد عبر القران عن هذا المفهوم في قوله تعالى: ((الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى)) [٤٠].

* **النخيل** :

ولعل هناك علاقة وثيقة بين شعراء المدينة وأشجار النخيل ، لأنها أحد الأشجار التي أشتهرت بها المدينة ، وسعوا إلى زراعتها والاعتناء بها ، لكونها مصدر غذائي مهم ، فضلاً عن أهميتها في جميع جوانب حياتهم ، وهذا ما دفع الشعراء إلى ذكرها في تجربتهم الشعرية ، وأولاها بعضهم العناية منطلقاً في ذلك من معطيات الثقافة الداعية إلى ذلك التكريم والاعتناء ، وفي ذلك يقول حسان[٤١] :

لنـَـــا حَــرَّةٌ مــأطورةٌ بجبالها بـنى المجدُ فيــها بيتهُ فتــأهَّــلا

بها النخلُ والاطامُ تجري خِلالـها جداولُ قد تعلو رَقاقاً وجرولا
إذا جدولٌ منها تصرَّمَ ماؤُهَ وصلنا إليه بالنواضح جدولا
على كُلَ مفهاقٍ خسيفٍ غروبُها تفَّرغُ في حوضٍ من الصخرِ أنجلا

فقد صور الشاعر لنا ذلك المكان المرتفع (مأطورةٌ) الذي يمشي فوقه المشاة في الجبال بسعة آفقه وجماله ، وأصبح ذلك المكان بؤره جمالية تجذب الأنظار لوجود شخصية الرسول (ص واله) فجعل كل ما يحيط به يتفاعل معه بما في ذلك (أشجار النخيل ، والآطام) فهما يتكاتفا في الغذاء والارواء والاشباع ، فضلا عن منظر المياه التي تجري من تلك الجداول في حركه تموجيه رقيقه تبعث الراحة النفسية في الآخر المترقب لهذا المنظر.

وكذلك يتجلى هذا المظهر في وصف الشاعر عبد الله بن رواحة لرحلته إلى مؤته قائلا[٤٢]:

إذا أديتني وحَمَلتِ رَحْلي مَسيرَةَ أربع بعدَ الحِساءِ
فشانكِ أنعمٌ وخلاكِ ذمٌّ ولا أرجعْ إلى أهلي ورائي
وردكِ كُلُ ذي نسب قريبٍ إلى الرحَّمنِ منقطعَ الإخاءِ
هُنالكَ لا أبَاليْ طلعَ بعلٍ ولا نخْلٍ أسافلُها روَاءِ

فالشاعر وظف المشهد الماثل أمامه في صورة شعرية من خلال توجيه خطابه إلى ناقته موكلاً كل همه إلى الذات الإلهية غير مهتمٍ بما يجنيه من هذه الرحلة من مناطقها المرتفعة التي لا أرواء فيها ، ولا من نخيلها الذي يشرب بعروقه من الأرض فيستغني عن السقي ، فاصبح ذلك التقابل بين عطاء المكانين ذا نظرة واحدة عند الشاعر.

وكذلك قيس بن الخطيم يحذر قوم بني الخزرج من الاقتراب من نخل أحيحة بن الحلاج بن مالك بن الاوس فيقول[٤٣] :

كأنَّ رُؤوس الخزْرَجييّنَ ـ إذ بدتْ كتائبُنا تترى مع الصبح ـ حنظلُ

فـــلا تَقْـربوا جذْمـانَ إنَّ حمامهُ وجنتهُ تــأذى بـــكم ، فتـحمّلوا

وهنا يحيلنا النهي عن الاقتراب إلى أشجار النخيل (جُذمان) إلى ظاهرة العدوانية التي كانت معروفة عند الجاهليين وهي((ظاهرة حرق النخيل ... فاذا غلب قوماً احرقوا نخيلهم حتى تصبح كأنها نساء قائمات في مأتم ، قد لبسن الحداد))[٤٤] ،فهو يؤكد على أن النتيجة المترتبة على الفعل الجسيم يعود ضرره على أنفسكم ولم يقتصر مضارها على صاحبها ، والدليل على ذلك توظيف الأفعال المخاطبة (تأذى ، فتحملوا) التي تدل على استمرارية الحدث الجسيم اللاحق لكل الأطراف المتصارعة.

من ذلك قول الشاعر أبي قيس بن الأسلت وهو يصف فسائل صغار النخيل [٤٥]:

غراسٌ كالفتائن معرضاتٌ على آبـــارها أبداً عُطون

تكمن ثيمة المكان الذي قصدة الشاعر في نصه الشعري بفسائل النخيل المحاطة بحرار المدينة ، وما تنماز به من علو وارتفاع ، فضلاً عن آبارها التي كانت بجانبها والتي كانت وسيلة اروائية لموجودات الطبيعية الحية ـ الإبل ـ مما اكسب المكان حضوره بوجود النظرة الشاعرية والكشف عنه

* **النبات** :

لم تتحفنا الدواوين الشعرية للشعراء المخضرمين بذكر أنوع مختلفة من النبات الذي عرفته المدينة ، لذلك نرى قلة وقوف الشعراء عليه وأعطاهُ الأهمية مقارنة بالأشجار، وقد علل الدكتور نوري حمودي القيسي ذلك بقوله:((أما النبات فقد كان وروده في الشعر أقل لضعفه ولان حاجتهم إليه قليلة واستعمالهم له محدود))[٤٦] .

ويظهر هذا المظهر في قول حسان بن ثابت واصفاً نبات الكروم (العنب)[٤٧]:

إذا عذِرت الحيّ كـان نِتاجُهَا كُرُوماً تدلى فوقَ أعرفَ ماثِلِ

فالصورة التي أرادها الشاعر وصف أحياءه وحاراته التي كانت تتزين بنات الكروم (العنب) فقد كأن يتدلى على أسوار هذه الاحياء ، ليبين جمال طبيعتهم وليبعث الجمال الذاتي الذي احسه وينقله إلى المتلقي ؛ ليكون هو الآخر متأثراً بذلك الجمال الطبيعي ، وذلك البوح الوجداني .

وكذلك في قولة واصفاً (نبات التفاح) ، مشبهاً به رضاب محبوبته[٤٨]:

كأن سبيئةً مِنْ بيتِ رَأسٍ، يَكونُ مزاجهَا عَسَلٌ وَمَــاءُ

على أنيابهَا، أو طعْمَ غَضٍّ مِـــنَ التفّاحِ هصّرهُ الجناءُ

حيث شبة الشاعر رضاب محبوبته بطعم الخمرة أو الدرة التي تستخرج من باطن الأرض ممزوجة بعسل وماء والجامع بينهما حلاوة المذاق ، أو بطعم التفاح الذي يقطف حديثاً ، فالتشبيه الذي وظفه الشاعر عزز جمال المشهد الشعري وأضفى عليه حضوراً مميزا في الوصف ، واستطاع المبدع أن يشعر المتلقي للؤهلة الأولى من قراءة النص تجسيد الطبيعة الماثلة أمامه بكل جمالها .

نلحظ أن أدوات الشاعر تتعاضد في الوحدة البنائية النصية القائمة على التوظيف الشّمي الجمالي مع أحساس الشاعر عن طريق الاستعانة بالتعبير التشبيهي، فيقول[٤٩] :

كـأنَّ القرَنفُلَ والزَّنجبيلَ وذاكي العبيرِ بجلبـابها

ارتكز البيت الشعري على علاقة ثلاثية الأطراف شكلت مثلثاً طبيعياً يصب في بوتقة معجم الطبيعة المعطاء بالجمال ونقله إلى معجمة الشعري من خلال ذكره (القرنفل والزنجبيل والعبير)، وتشبيه جمال عطر محبوبته وما تفوح به من رائحة زكية مشابهه لانبعاثات الطبيعة الخلابة وعطرها الجميل ، وقد وفق الشاعر في منح النص إتساعاً وجمالاً تعبيرياً توقد في ذهن المتلقي الأثر ذاته الواصف لعطر جلباب المحبوبة بهذه النباتات .

النباتات الصحراوية :

* الحنظل :

عد الحنظل من النباتات التي تتصف بالمرارة وقدرتها على تحمل حرارة الصحراء وندرة المياه فيها [٥٠] ، وقد ورد ذكره عند شعراء الدراسة في قول قيس بن الخطيم [٥١] :

كأنَّ رؤوس الخَزْرجيّينَ ـ إذ بدتّ　　　كتَائبنا تترى مع الصُّبح ـ حنظلُ

فقد وظف الشاعر في نصه الشعري (نبات الحنظل) لبيان قوة قومه وشجاعتهم في الحرب ، وهذا النبات يعطي دلالة رمزية تدل على تحمل مصاعب الحياة وقوة الطرف المنازع وتحمله على الأذى كما هو حال ذلك النبات الصحراوي الذي يتحمل قسوة طبيعته التي وجد فيها .

الخاتمة :

أخذت الطبيعية الأرضية / الصامتة حضوراً واسعاً في التوظيف الشعري عند شعراء الدراسة ، منطلقين في ذلك من معاينة الواقع المعاش -طبيعة المدينة المنورة- وما فيها من ظواهر طبيعية جبلية وصحراوية ويكتنفها في ذلك وجود الوديان والبحار والآبار التي تكون ذو أهمية كبيرة في الإرواء ، فضلاً عن ذكرهم لأنواع النباتات التي تسد حاجتهم ، وإن استعمالاتهم المحددة للنبات ابعدتهم عن الإسراف في ذكر تصنيفاتها والاقتصار على اشجار النخيل والكروم والقرنفل والزنجبيل ، وكذلك اتخذوا من نبات الحنظل انموذجاً لضرب الأمثال بقصد تعزيز الفكرة المقصودة في الذات المتلقية .

الحواشي:

(١) ينظر: الطبيعة في القران الكريم : د.كاصد ياسر الزيدي ، دار الرشيد ،١٩٨٠م :٥٢.

(٢) سورة ال عمران : ١٩٠ ـ ١٩١.

(٣) الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية القدامة وتحليل النص : عبد الاله الصائغ ، الدار البيضاء ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧: ٢٠٢ .

(٤) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري (ت ٥٤ هـ): تح عبد الله سنده، دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان ،ط١ ،١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م : ١١٠ .

(٥) المصدر نفسه :٢٧٤.

(٦) ديوان كعب بن مالك الأنصاري : ٩٥ ـ٩٦ .

(٧) ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت : ٨٦.

(٨) الطبيعة في الشعر الجاهلي : ٣٤.

(٩) المصدر نفسه : ٣٠ ،٣٢.

(١٠) ديوان حسان ابن ثابت : ٢٣٦.

(١١) ديوان حسان بن ثابت :٢٠٦ـ ٢٠٧.

(١٢) المصدر نفسه :٢٠١ .

(١٣) المصدر نفسه :٢٣٥.

(١٤) ديوان قيس بن الخطيم : ٦١-٦٢ .

(١٥) ينظر: فن الوصف وتطوره في الشعر العربي : إيليا حاوي ،ج ١ ،ط١،دار الشرق الجديد، كانون الأول ـ ١٩٥٩: ٣١.

(١٦) الطبيعة في الشعر الجاهلي : ٢٤٢ .

(١٧) ينظر : دلالة المطر في الشعر الجاهلي دراسة نسقية سياقية ، أطروحة دكتوراه ، عادل بوديار ، جامعة الحاج لخضر ـ باتنة ـ ، ٢٠١٤هـ ـ ٢٠١٥ م : ٢١ .

(١٨) ديوان كعب بن مالك : ٥٨.

(١٩) ديوان أبي قيس بن الأسلت :٨١.

(٢٠) ينظر : الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول :د. أنور عليان أبو سويلم ، دار العلوم ، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م : ٦٤ .

(٢١) ديوان حسان بن ثابت :١٢٦.

([٢٢]) سورة الأنبياء : ٣٠ .

[٢٣] ينظر: إنتاج المكان بين الرؤيا والبنية والدلالة : د. محمد الأسدي ، اصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية، بغداد ط١، ٢٠١٣: ٦٤.

[٢٤] دلالة المطر في الشعر الجاهلي ـ دراسة نسقية سياقية ـ ، (أطروحة دكتوراه) : ٣٦ .

[٢٥] ينظر : وصف البحر والنهر في الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي الثاني: د. حسين عطوان ،دار الجيل، بيروت ،ط٢ ،١٤٠٢هـ ـ١٩٨٢م :١١ .

[٢٦] كتاب الحيوان : أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ت ح . عبد السلام محمد هارون ، ج ٦، ط٢ ، ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧م :١٦.

[٢٧] ديوان حسان بن ثابت :٧١.

[٢٨] سورة الرعد : ١٧.

[٢٩] ديوان حسان بن ثابت:١٠٧.

[٣٠] ديوان قيس بن الخطيم :١١١.

[٣١] ينظر : رمز الماء في الادب الجاهلي : د. ثناء أنس الوجود ، مكتبة الشباب ، شارع إسماعيل سرى بالمنيرة ، د.ط ، د.ت : ٩٣ .

[٣٢] ينظر: الطبيعة في الشعر الجاهلي : ٤٥ .

[٣٣] سورة الزمر :٢١.

[٣٤] ديوان حسان بن ثابت :٥٥ .

[٣٥] ديوان حسان بن ثابت : ٢٤٠ .

[٣٦] ديوان كعب بن مالك :٣٧ .

[٣٧] ديوان أبي قيس بن الأسلت :٧٩.

[٣٨] ينظر : أسرار البلاغة : عبد القادر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جده ،(د.ت) : ١٢١ ـ ١٢٢ .

[٣٩] ينظر : الطبيعة في القران الكريم :٩١- ٩٢.

[٤٠] سورة طه : ٥٣ .

[٤١] ديوان حسان بن ثابت :٢٢٥.

[٤٢] ديوان عبد الله بن رواحة : ١٥١.

[٤٣] ديوان قيس بن الخطيم :١٣٨.

[٤٤] الطبيعة في العصر الجاهلي : ٧٢ .

(٤٥) ديوان أبي قيس بن الأسلت :٩٢.

(٤٦) الطبيعة في الشعر الجاهلي : ٨٨

(٤٧) ديوان حسان بن ثابت : ٢٢٧.

(٤٨) ديوان حسان بن ثابت : ١٤ .

(٤٩) ديوان قيس بن الخطيم :١٣٥.

(٥٠) ينظر: الطبيعة في الشعر الجاهلي : ٨٦ .

(٥١) المصدر نفسه : ١٣٨ .

المصادر والمراجع :

القران الكريم

١. أسرار البلاغة : عبد القادر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جده ،(د.ت) .

٢. إنتاج المكان بين الرؤيا والبنية والدلالة : د. محمد الأسدي ، اصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية، بغداد ط١، ٢٠١٣.

٣. الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية القدامة وتحليل النص : عبد الاله الصائغ ، الدار البيضاء ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧ .

٤. دلالة المطر في الشعر الجاهلي دراسة نسقية سياقية ، أطروحة دكتوراه ، عادل بوديار ، جامعة الحاج لخضر ـ باتنة ـ ، ٢٠١٤هـ ـ ٢٠١٥ م .

٥. ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت: تح : د. حسن محمد باجوده ، دار التراث ، ٢٢شارع الجمهورية ـ القاهرة .

٦. ديوان حسان بن ثابت الأنصاري (ت ٥٤ هـ): تح عبد الله سنده، دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان ،ط١ ،١٤٢٧هـ .

٧. ديوان عبد الله بن رواحة : تح : د. وليد قصاب ، دار العلوم ،ط١ ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٨. ديوان قيس بن الخطيم :تح : د. ناصر الدين الأسد ، دار صادر، بيروت ، د.ت .

٩. ديوان كعب بن مالك الأنصاري :تح :مجيد طراد ، دار صادر ، بيروت ـ لبنان ،ط ١ ، ١٩٩٧.

١٠. رمز الماء في الادب الجاهلي : د. ثناء أنس الوجود ، مكتبة الشباب ، شارع إسماعيل سرى بالمنيرة ، د.ط ، د.ت .

١١. الطبيعة في الشعر الجاهلي :د.نوري حمودي القيسي ، ط٢ ، ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤ .

١٢. الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول :د. أنور عليان أبو سويلم ، دار العلوم ، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

١٣. الطبيعة في القران الكريم : د.كاصد ياسر الزيدي ، دار الرشيد ،١٩٨٠م .

١٤. فن الوصف وتطوره في الشعر العربي : إيليا حاوي ،ج ١ ،ط١،دار الشرق الجديد، كانون الأول ـ ١٩٥٩.

١٥. كتاب الحيوان : أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ت ح . عبد السلام محمد هارون ، ج ٦، ط٢ ، ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧م :.

١٦. وصف البحر والنهر في الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي الثاني: د. حسين عطوان ،دار الجيل، بيروت ،ط٢ ،١٤٠٢هـ ـ١٩٨٢م .